

علماء ومفكرون عريشتهم

محضر الأعراب

محمد عبد الوهاب فايد

دار الشروان للنشر والتوزيع

www.dawahmemo.com

السُّنْنَةِ الْمُحْمَوَّدَةِ الْوَقَبْلَةُ فَإِذْ

كان مولده يوم ١١/٣٠/١٩٢١م - كا تشهد بذلك وثيقة الميلاد - في قرية « دمينكه » من محافظة كفر الشيخ ، وهي قرية معروفة بهذا الاسم في « معجم ياقوت » و « مراصد الاطلاع » وأسرته مهيبة بطلب العلم ونشره ، فوالده من الشيوخ المعروفين بالعلم والصلاح ، وجده الشيخ مبروك كان حجة في العلوم الدينية ، وقد خلَّف - كما يقول المترجم - مكتبة بخطه تضم صحيح البخاري وتعليقات عليه ، ومنها الشرح الصغير ، والشرح الكبير في فقه المالكية ، ومنها تفسير الجلالين ، وشرح ألفية السيوطي في النحو .. وغيرها . وأخوه الأكبر الشيخ محمد فايد ماذون القرية ، ويصفه الشيخ محمود بأنه معروف بتدينه وورعه واستمساكه بالسنة في كل أمر . وأخوه الذي يليه هو الدكتور عبد الوهاب ، مدرس في كلية أصول الدين بالجامع الأزهر ، وله آخر آخر باسم محمد ، وهو أيضاً مدرس بوزارة التربية ، وكان حتى آخر العام الماضي ٩٥/٩٦ معارضاً إلى المملكة السعودية ، ثم ابن عمه الشيخ محمد عبد الغني كان واعظاً بالأزهر ومن علمائه المعروفين بالصلاح ، وابن عمه الآخر عبد الله عبد الغني فايد متخرج في دار العلوم ومدرس في الثانويات .

وطبيعي أن أسرة تضم كل هذا النفر من أهل العلم والفضل لا بد أن تترك أثراً عميقاً في حياة المترجم .

وقد شاء الله أن يُرزِّ الشيخ بوالدته وهو في الرابعة من سنِيه ، فكان له ذلك الوالد بثابة الأم والأب جيماً . ولما نضجت فيه قابلية التعلم وجهه إلى القراءة والكتابة والحساب إلى جانب حفظ القرآن العظيم ، حتى إذا أتم حفظه ذاك الحقة بمعهد دسوق الديني التابع للأزهر ، وكان ذلك عام ١٩٣٣م وفي هذا المعهد استكمل دراسته الابتدائية حتى قال شهادتها خلال أربع سنوات ، وهي المدة المقررة لهذا المعهد .

ويلاحظ أن هذه الابتدائية غير الابتدائية التي نعرفها اليوم ، والتي تمتَّدت سنتين حق يتأهل الطالب للالتحاق بالسنة الإعدادية الأولى ، ذلك أن هذه السنوات الأربع قد سبقتها دراسة أخرى جادة زودته بعلومات وافية إلى جانب استظهار القرآن الكريم ، الذي هو المرتكز الأساسي للثقافة الإسلامية ، التي ورثها الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية ، واستمرت عليها طوال القرون ، حتى امتدت إلى تلك الشاهج أيدي العابثين ، والمرجفين من مدعي التجديد ، ففسخت الدراسة الابتدائية في ديار المسلمين جميعاً ، حتى أصبحت ضرباً من مكافحة الأممية ، ليس وراءها رصيد من علم ولا ثقافة ولا من يحزنون . ولا ننسى المقررات التي كان الطالب يدرسها في ذلك النظام الابتدائي الأزهري ، وبخاصة في العربية والثقافة الإسلامية ، مما لا يتواافق مثله لحملة الثانوية في هذه الأيام .

ويحدثنا الشيخ عن بعض مشكلاته أثناء تلك الدراسة ، فيشير إلى ثورة قام بها طلاب المعهد للمطالبة بإصلاح الأزهر ، والظاهر أنه كان مسؤولاً عن بعض النشاط المميز في هذه الحركة ، فقرر فصله ، ثم لم يلبث أن أعيد بعد أن نجحت تلك الحركة في تحقيق أهدافها كما يقول ، وبحصوله على الشهادة الابتدائية هذه التحق بمعهد طنطا الثانوي ، وكانت مدة الدراسة فيه آنئذ خمس سنوات .

يقول الشيخ : أثناء دراستي في السنة الثانية في هذا المعهد تناهى إلى مسامع الطلاب أن كتاباً يدرس في كلية الآداب بقرار من عميدها يتضمن مساجع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . فثار الطلبة معلنين استنكارهم ، وأضرروا عن الحضور ذلك اليوم . فبادر الشيخ إبراهيم الجبالي شيخ المعهد بفصل نفر منهم ، وكان لذلك الفصل أثره في نفوس الطلبة ، وفي نفسه خاصة ، فإذا هو يثير حمية زملائه لنصرة المقصولين فيلقي منظومة يحرضهم بها على التحرك لاستعادتهم ، ولا بأس أن نثبت هنا بعض هذه الأبيات لتتبين مدى استعداد هذا الفتى للعمل الخطابي أو (الثوري) على حد تعبيره :

لهم في الحق السنة تnadى به ما لا يليق بذوي الرشاد ويبدون العداء لمن يعادى وهل إخوانكم مثل القناد !	أرى بالإنس إخواناً كراماً رأوا أن العميد أتى بسفر فقاموا يعلنون أشد سخط فهل في مثل ذاك يليق فصل
---	--

ثم ختمها بقوله :

فجدوا واطلبوا بطريق سلم	رجوعهم وإلا باشتداد
-------------------------	---------------------

وكان العقوبة هذه المرة أكبر من مجرد الفصل ، إذ جمعت بين الفصل والحبس ، فقد استعان شيخ المعهد برجال الأمن فاحتجزوه .. وشد ما ثقل هذا السجن على الفتى ، فإذا هو يتمامل ويترجم آلامه بأبيات أخرى وجهها إلى المراقب بالمعهد يستشفعه للإفراج عنه ، وفيها يقول للشيخ المراقب :

أأقول ناسِ أنت أم متناسي ! له أمرنا حتى يخفف ياسي أيليق بالعلم الشرييف وربه	ماذا أقول وقد بلاني الفاسدي هلا ذهبت إلى المدير موضحاً أن ينجلي متحجر الإحساس
---	---

أحسبتُ أني فعلت كبيرة
 ونشرت بجهولاً أمام الناس !
 فبلغوني بالعقوبة والأذى
 من غير تبصرة ولا قسطاس
 فرنوا الأمور وقدروها قدرها
 وابنوا لبيت العدل 'خمس' أساس

وهكذا يرسل الفتى السجين في عتاب يشتد إلى حد التقرير لشيخ المعهد
 والمسئولين معه ، وقد نسي أن الذين يوجه إليهم هذا الخطاب يستطيعون إذا
 شاؤوا أن يضمنوا مضمونه إلى مآخذة الأخرى ، فيكون سبباً إلى إطالة مكثه
 في القسم ، وحائلاً دون النظر في الصفح عنه وإعادته إلى الدراسة .. ولكن
 الفتى مطبوع على الصراحة ، فهو يشكوا لأنه متالم ، وهو يؤنب لظنه أنه مظلوم
 يخاطب ظالمه . وسرى أنها الخصائص التي لا تزايده حتى بعد أن أوغل في العقد
 السادس من عمره المبارك .

ثم إن في استخدامه المنظوم مثل تلك المناسبات ملامح نفسية تؤكد أنه
 ذو فاعلية تتبعني تتحقق ذاتها عن طريق التأثير في الآخرين . ولا أراني مبالغًا
 إذا قلت إنها كذلك إحدى الصفات التي يحسها بداعاه كل مخالف له حتى الآن
 إنه سريع الاستجابة لدعاعي الكلام ، يدفعه إلى ذلك ثقة كبيرة بأفكاره
 وبمواربه ، وهي ميزة تقاد تلبس معظم خريجي كليات الدعوة وأصول الدين
 من الأزهريين ، وإن تقوا توافقاً في حجم الموهبة وألوان الثقافة العامة .

أما طابع الإثارة في أفكاره فواضح من خلال صيغ التحرير ، التي يحاول
 توكيدها بما يشبه البراهين المنطقية ، فهو يعرض التهم ثم يرد عليها ، ويحيطها
 أثناء ذلك بطلال من الفقرات الإنسانية لتكون أكثر تحريكًا للمشارع .
 ولا يأس أن يبلغ من التحرير حد الدعوة إلى ألوان الشدة إذا لم تتجدد الحالات
 السلمية ، كما يفعل بخاتمة الدالية ، حيث يبدو لك مفعماً بشعور القائد الذي
 يخاطب جنوده ، لا الطالب الذي يلتمس من نظرائه ما يريد . وهي نفسها

الظاهرة التي تريك إياه ، من خلال محاضراته ومقالاته ، وهو على أتم الثقة بأنه واحد من قادة الفكر ، الذين يقدمون لقراءهم ومستمعيهم ما هم بحاجة إليه من التوجيه إلى أقوم سبيل .

الشيخ العنيد :

ولعل في الخبر الطريف الذي نقله في ما يلي عن مجلة « التحرير » ما يساعد على استكمال الصورة التي تناولت إياها المترجم من خلال آثاره .

بعد عشر سنوات من تخرج الشيخ في كلية أصول الدين وفي العدد ١٨٥ من عام ١٩٥٦ يقول المجلة عن الشيخ محمود فايد : « إنه مناكف قديم .. كان الأول عند تخرجه في الأزهر ، وكان المتبع أن يدعى الأوائل من الناجحين في كل سنة إلى حفلة يحضرها الملك السابق ، ويصافح فيها المترجون ، وأعطيت الأوامر إلى الجميع بأن ينحنيوا عند مصافحته . ولكن هذا الشيخ العنيد أبى أن ينحني ، وصافح مولانا وهو منتصب القامة رافع الرأس .. وبسبب ذلك صدر الأمر بتعيينه في سوهاج بخلاف ما جرى عليه العرف من تعيين الأولين في القاهرة » .

أجل إن الشیخ العنید .. الذی طالما جرّ علیه عناده وصرّاحته الأھوال وھو ثابت علی ما یؤمن أنه الحق، لا یعني لباغ رأساً، ولا یغض عن ظالم طرفاً، ومن أجل ذلك كان نصيبه من البلاء في عهد أصحاب(التحریر) أضعاف ما لقىھ في ظل الملك الغریر .

ولا یحسن بنا ، وقد أطلنا الوقوف مع بوأکیرہ الشعیریة ، أن نغفل الإشارة إلى أسلوبه التعبيري في هذه المنظومات وما تتطوی عليه من الدلالات . فأول ما نلاحظه هنا أنها محاولات مبتدئه لما تستقيم له الأداة .. ولكنها مع ذلك تنبئ عن طموح ذكي يتطلع إلى مستوى مرموق ، ولا يستحيل معه تحقيق المأمول . وما أدری إذا كان فضيلته ستحتفنا في النهاية بنماذج من شعره الذي بلغ مرحلة ملموسة من النضج في ما بعد .

شخصيات مؤثرة :

ولم يخصص الشيخ استطلاعنا الخامس بإجابة مستقلة ، بل أورد الكلام عن الرجال الذين أثروا في توجيهه مدرجاً في غيره من الحديث . وطبعي أن يكون والده في مقدمة هؤلاء المساهمين في تكوينه الفكري . وكيف لا يكون له هذا الأثر وهو على المستوى الذي يصفه المترجم من الفضل .. لقد رأيناه يحتضن ابنه بحنان الأم والأب جميعاً ، فيعوضه ما سلبه الموت من رحمة الأم . ولنستمع إلى المترجم الآن يحدثنا عن بعض هذا الفضل .

يقول الشيخ : إنه كتب إلى والده يستشيره في ما يعتزمه من نقد لتصريحات شيخ الأزهر يومذاك ، بعد أن جرته (السياسة الثورية) إلى مواقف لا يرضى عنها الإسلام الذي يمثل أكبر معاقله ، وهو يتوقع إذا نشر ما يريد في هذا الصدد أن يعاجل بالنقل إلى قنا ، فجاءه جواب الوالد غير بطيء ، لا يشبطه ولا يشجعه ، ولكن يرده إلى قلبه ليستفيقه في ما هو مقدم عليه ، دون أن يفكر في ما وراء ذلك من أذى بعضه النفي . يقول الوالد : « أنا لا يعنيني أن تنتقل إلى قنا أو تبقى هنا - في القاهرة - إنما يعنيني فقط أن تلزم جانب الحق في كل ما تقول .. » و كان ذلك الوالد يستوحى هنا عبارة ذات النطاقين وهي تذكر ابنها الصحابي الجليل بالتصحيات التي يستوجبها الحق .

وكأنما ألقى الابن في حكمه والده إشارة بلزمون الإقدام ، فإذا هو يرسل قبلته التي كانت إيداناً بحركة ستنتهي حتى تهز الأزهر كله - كما سرر - ووقع المذور الذي توقع فنصل إلى قنا ، ثم أحيل إلى مجلس التأديب بعد أن قطع راتبه . وقدم الوالد القاهرة لزيارة ولده أثناء ذلك ، وفي أحد المساجد يلتقي بصديق له يعطف على قضية الشيخ محمود ، فطلب هذا من الوالد أن يدعو للشيخ بالنصر على خصومه ، فلم يزد أن قال : اسمع يا حاج علي . إن كان محمود على الحق ، وهذا ما أعتقده ، فسينصره الله ، وإن كان على باطل فلا أحب إلى من أن يلقى التأديب الذي يستحق .

وتطول صحبة الشيخ لهذا الوالد الصالح فيعمق أثره في كيانه ، ويزداد حباً لوالده هذا على مر الأيام ، حتى ليسمعه يدعو له عقيب كل صلاة ، وقد وفق إلى موافقته في الحج ، فلم ينس الدعاء له أيضاً في طواوه وسعيه وفي كل موقف من المشاعر المقدسة .

ويروي صديقنا عن ذلك الوالد أنه قال له وهو يداعبه ذات يوم : « أتعرف يا محمود لماذا نقلت إلى قتنا؟ .. يا محمود .. إنك تدرس التفسير .. ولقد قالوا في تفسير سورة يوسف إنه قال : « رب السجن أحب إلي » ، فدخل السجن ثم أنعم الله عليه ، ولو أنك أملت غير ذلك من فضل الله لحققه الله لك » .

يقول الشيخ : كان لهذا الدرس عميق الأثر في نفسي ، ولقد انتفعت به يوم أودعت السجن الحريري عام ١٩٦٤م فصليت ودعوت الله ألا يعيقني فيه أكثر من ذلك اليوم ، وجاء فرج الله فغادرت السجن بعد ليلة واحدة فقط .

ويذكر الشيخ من العلماء الذين يعتبرهم من المؤثرين في نفسه شيخ معهد دسوق الشيخ محمود العمراوي ، والشيخ إبراهيم الجبالي شيخ معهد طنطا ، وذلك على الرغم مما لقيه على يدهما . لقد فصله الشيخ العمراوي في المرحلة الابتدائية ، وفصله الشيخ الجبالي في القسم الثانوي ، ومع ذلك لم ينقم منها لأنها - كما يقول - كانا يغورانه بالحب والتقدير ، وكان يعجبه فيها مكانتها العلمية والاهية التي كانت لها بين الناس وفي أوساط المثقفين .

ويعد من الشخصيات ذات الأثر البعيد في نفسه كذلك الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، ثم الشيخ حسن الهضيبي المرشد الثاني للإخوان ، ثم الأستاذ سيد قطب . ولكنه لا يوضح مدى صلته بهم ، وكنا نود لو يتبعه في هذا الجانب من حياته .

ولقد حدثنا الصديق العزيز ، حفظه الله ، بخبر حادثة جرت له مع الشهيد سيد قطب والشيخ محمد الأودن ، رحمهما الله ، إذ كان بين ثلاثة لقاء يتعلق

بشتون الدعوة ، سرعان ما انتهى إلى اعتقالهم ، فبقي الاثنان رهن الاعتقال . وخرج هو كا ذكر آنفًا ، وأرجو أن تتاح لي الفرصة لصياغة ذلك الحادث في قصة قصيرة ذات يوم .

علوم المفضلة :

وفي إيجاز واف يجيب على سؤالنا عن أحب العلوم إليه فيقول : « أحب العلوم إلى تفسير كتاب الله ، ودراسة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا بد من فعل الكتاب والسنّة يقوم الدين الصحيح البريء من الشوائب ، وبهـما تتحقق السعادة التامة في الدنيا والآخرة » .

وإيات الشیخ لعلوم الكتاب والسنّة لا يعني انفصامه عن العلوم الأخرى ، فقد تولى أثناء حياته التدريسية تعلم المواد المختلفة ذات الصلة بهذه العلوم ، وبخاصة علوم اللغة والبلاغة والتوكيد والمنطق .

وطبعـي ذلك لأنـ من أبرز خصائص الشـیخ أنه رـجل دعـوة يتـصل بـ مختلف الجـاهـير عن طـرـيق الخطـابـة والكتـابـة والموـعظـة ، وهـي شـئـون تستـدـعـي التـضـلـعـ بـكـثـيرـ من العـلـومـ .

معركة لا تنسى :

وهـنا يـجدـ الشـیـخـ مجالـ الحديثـ متـسـعاـ فـيـتـحـفـنـاـ بـاـ لـذـ وـطـابـ عنـ الأـحـدـاـتـ الـقـيـ عـاـصـرـهاـ وـلـابـسـهاـ . وـقـدـ رـكـزـ بـوـجـهـ خـاصـ عـلـىـ مـعـرـكـهـ معـ الشـیـخـ عبدـ الرـحـمـنـ نـاجـ شـیـخـ الأـزـهـرـ السـابـقـ ، وـأـحـسـنـ فـيـ ذـلـكـ ، لـأـنـهـ يـتـمـحـ لـنـاـ مـنـ خـلـالـ هـذـهـ المـعـرـكـةـ أـنـ نـدـرـسـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـوـضـاعـ الـيـ رـاقـتـ عـهـدـ الإـرـهـابـ وـالـكـبـتـ ، فـكـانـ فـيـ هـذـهـ المـعـرـكـةـ مـتـنـفـسـ لـغـيرـ وـاحـدـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـدـينـ فـرـضـ عـلـيـهـمـ الصـمـتـ بـإـزـاءـ الـأـهـوـالـ الـيـ كـانـتـ تـنـيـخـ عـلـىـ صـدـورـ النـاسـ .

كان عنوان المقال الذي افتتحت به المعركة قذيفة ذات رؤوس متعددة .

إنه « باسم الله والله أكبر ، فليستقل شيخ الأزهر » إنه إعلان حرب لا يراد لها أن تخمد إلا باستقالة شيخ الأزهر ولم يذكر الشيخ أين نشر المقال ، ولكن نرجح نشره في مجلة « الاعتصام » التي كانت أحد المنافذ الصغيرة التي تركتها السياسة الثورية متৎضاً لأهل الإسلام .

وسرعان ما انتشر دوي القضية ، فإذا هو يهز الأزهر كله ، فمقابلة الكثرة من الأزهريين بكل مظاهر الرضى والتأييد ، إذ وجدوا فيه تعبيراً عن رأيهم في الموضوع المثار . ومن هنا جاء نقله إلى معهد قنا ، ثم وقف راتبه وإحالته إلى مجلس للتأديب ، ألف بسرعة من الشيخ الحسيني سلطان وكيل الأزهر رئيساً ، والشيخ عبد اللطيف السبكي عضواً ممثلاً ، ثم تبع ذلك قرار جمهوري من قبل الرئيس بتعيين الدكتور مصطفى الحفناوى لعضوية اليسار .

ولما انتشر الخبر تطوع بعض المحامين لاحتلال مقاعد الدفاع . ويسمى الشيخ من هؤلاء الأساتذة سليمان العقاد ، وعبد الحميد عبد المقصود ، ومحمد عيسى عطيه خميس .

انتصار :

وفي اليوم الذي عين للجلسة الأولى حضر الشيخ مع محاميه ، فأصرروا على ما كتب ، وأثبتت في المحضر أن راتبه قد قطع قبل أن يدان . وطلب المحامون تأجيل الجلسة للاطلاع ، ولبس المحامون ما ينتويه رئيس المجلس ، فتباحثوا في الأمر وعلموا من الشيخ ما سبق أن كتبه عن هذا الرجل في مقال كشف عواره ، وطالب بتغزيره لأنه نسب إلى الرسول ﷺ ما لم يقله . وفي الجلسة التالية أجمع المحامون على مطالبة وكيل الأزهر بالتنحي عن رئاسة المجلس لأسباب لا يريدون الإفصاح عنها حرصاً على كرامته ، فرفض مطالبهم إلا بعد إبداء الأسباب ، فسجلوا في المحضر نص المقال المشار إليه قائلين : كيف ترئس مجلس تأديب تحاكم فيه رجالاً ، طالب بتأدبيك لكذبك على رسول الله ﷺ ! ..

وتکهرب الجو وأجلت الجلسة بعد أن سجل المحامون طلبهم في مذكرة خطية . فما كان من فضيلة الوكيل الرئيس إلا أن كتب على ظهر المذكرة حكماً بفصل الشيخ المتهم قبل انعقاد المجلس ! وكان لذلك رد فعل سريع ، إذ قابل الدكتور الحفناوي تصرف الرئيس بالاستنكار ، ثم أبلغ الخبر رئيس الجمهورية . وشاع النباء ، وأخفقت المحاكمة ، وجاء المفاوضون يغرون الشيخ بختلف العروض مقابل سكوته ، فرفض كل عرض ، إلا أن يعود مدرساً كما كان في معهد منوف ، وأن يعود كذلك زملاؤه الذين أيدوه إلى معاهدهم التي نقلوا منها . ولم يلبث المسؤولون أن استجابوا لـ كل هذه المطالب ، وخرج الشيخ من المعركة رافع الرأس منتصراً . وجاء المؤيدون يستقبلونه بالتهاني ، وفي مقدمتهم العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، رحمة الله ، الذي تلا على الشيخ قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلي الله فليتوكل المؤمنون ». .

خلفيات المعركة :

ووجد شاعر الأزهر - كما يسميه الشيخ - الدكتور حسن جاد أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية ، في هذه الأحداث روافد صالحة لإنشاء مسرحية شعرية صاغها ونشرها في العدد الرابع من مجلة « السيدات المسلمات » عام ١٣٧٦هـ بعنوان « حكمـةـ الجـاذـيبـ » وقد رمز فيها إلى الشيخ فايد باسم « عائد » وإلى الأزهر باسم « العشر » .

يقول الشاعر الدكتور على لسان الوكيل الرئيس في تعليمه للحكم الذي أصدره على الشيخ فايد :

من حيث إن (عائدأ)	قد لام شيخ (العشر)
وأعلن الحق جهـا	رأـاـ ونبـاـ بالـنـكـرـ
وراح يزري بالنـفـاـ	قـ وـهـوـ لـيـسـ بـالـزـرـيـ

وضاق بالإلحاد والـ
مجون في تهـورـ
وبعد ما تلاه من دفاعـه المـسـوقـ
فقد رأينا فـصلـهـ منـ المـحيـطـ المـعـشـريـ

ثم يقول على لسان الدكتور الحفناوي المستنكر لذلك الحكم :

أجيـوني أليـسـ الدـينـ حـقـاـ
فـكـيـفـ جـعـلـتـمـوهـ هوـيـ مـطـاعـاـ
أـيـفـصـلـ منـ يـقـولـ الحقـ منـكـ
وـيـكـرـمـ منـ يـضـيـعـهـ ضـيـاعـاـ
تسـابـقـتـمـ إـلـىـ الـحـكـمـ اـعـتـبـاطـاـ
وـدـبـرـتـمـ نـهـاـيـةـ سـرـاعـاـ
وزـورـكـُ فـلـمـ نـسـمـعـ عـلـيـهـ مـداـلـةـ وـلـمـ نـسـمـعـ دـفـاعـاـ

ثم يتبع ذلك على لسان الشيخ فايد بعد رفضه العروض المغربية :

معـاذـ اللهـ لـسـتـ أـرـيدـ جـاهـاـ
وـلـيـسـ هوـيـ الـنـاصـبـ منـ طـبـاعـيـ
فـكـفـواـ عـنـ مـساـوـيـ بـدـنـيـاـ
يـبـاعـ الـحـقـ فـيـهـاـ كـلـتـاعـاـ
يـمـينـ اللهـ لـاـ أـلـقـيـ سـلـاحـاـ
وـلـسـتـ بـعـمـدـ يـوـمـاـ يـرـاعـيـ

وقد اشتراك في هذه المعركة أكثر من صحفية ، ففي مجلة التحرير كتبت عنها في العدد ١٨٥-١٩٨ ، وجريدة المساء تناولت الموضوع في ٢٦ يناير ١٩٥٧ ، أما مجلة السيدات المسلمات فتابعت القضية في أعدادها الأربعية ربىع الآخر ورجب وشعبان ثم رمضان في عام ١٣٧٦ ، وكذلك شارك في الموضوع مجلتنا صوت الإسلام والاعتصام .

ولا جرم أن اجتماع هذه الصحف كلها ، وأولئك المحامين النمسة ، على الخوض في هذه القضية إنما يصور ، كما أسلفنا ، أوضاعاً نفسية كبيرة ما يحيط بها من الضغط ، فهي تبحث عن منفذ تتنفس منه ، فما إن وجدته في هذه القضية حتى اتخذت منها وسيلة للتخفف مما تعانيه . وكانت القضية جديرة بالاهتمام لأنها تثلج عدواناً على مؤسسة إسلامية استطاعت أن تحتفظ باستقلالها طوال عشرة قرون ،

حتى جاءها ذلك الحكم يريد تسخيرها لماربه ، ولو أدى ذلك إلى طعن الإسلام في الصميم . ولقد استطاع ذلك الحكم الريهيب أن يحقق غير قليل من النجاح في هذا المعلم الخالد ، باستجراره بعض المسؤولين فيه إلى الخضوع لأهوائه ، فكان لا بد من رد الفعل الذي ترجم غضب الجمهور المسلم من أهل العلم على ذلك العدوان وعلى الضالعين معه من المسؤولين .

وأخيراً إن في هذه المعركة صورة لا ينبغي أن تنسى من تلك الحقيقة التي أريد بها خنق كل صوت يرتفع بكلمة (لا) ولو أدى ذلك إلى إزهاق الأرواح وإذلال الأمة ، ورفع الأبراء على أعداد المشانق ، وشحن السجون بكل كريم من الأطهار الأحرار .

كلام دونه السهام :

والمؤرخ لحياة الشيخ محمود فايد لا يستطيع إغفال شجاعته في مواجهة رئيس الجمهورية أثناء خطاب عهوده التي أغفلت الأباء ، وكمت الأفواه ، وغلت الأيدي ، فلا يحروم امرؤ على الإشارة بهذه الكلمة ، إلا إذا كان من المغامرين الذين لا يبالون العواقب ، أو المؤمنين الذين لا يرجون لغير ربهم وقاراً .

لقد كشف الرئيس عن نواياه الحقيقة جيئاً حين أعلن حربه على بقايا النظام الإسلامي في مصر بإلغائه القضاء الشرعي ، ومصادرته حقوق الأفراد والجماعات في التملك والكرامة والعدالة وحرية الكلمة .. ولم يكن بد للجريح من التأوه ، فارتقت بعض الأصوات الجريئة من أوساط العلماء ، تعلن حكم الشريعة في ما يجري من عدوان على مبادئها الأساسية ، وتذكر الرئيس بمسؤولياته تجاه الإسلام والشعب الذي يحكمه . وطاش صواب الرجل بيازء هذه المعارضه ، إذ كان يظن - ثقة بشهادات من حوله من بطانة الفساد - أن الإسلام قد انتهى بحننة الإخوان المسلمين ، فلا موضع لكلمة (لا) أمام كل ما يأتيه وما يذره .. وانتهز إحدى المناسبات السياسية فراح يهدد ويوعده ، وخص عشر العلما

بدقة من السباب البليغ . وعلى طريقة الشيوعيين في التهوين من علماء الإسلام ، جعل يتمم أصحاب العائم باستغلال الدين في سبيل بطونهم وشهواتهم ، ولو أدى ذلك بهم إلى بيع الفتوى بالفراخ .. دون أن يفرق في هيجته بين الذين ينافقونه والذين يعارضونه من المشايخ .

وكان مستحيلاً على مثل محمود فايد أن يدفن ثورته في قلبه بإزاء ذلك التهجم الضريـر فكتب أهم مقالاته - كما يقول - في نقد ذلك المذر ، وحملت «الاعتصام» ذلك المقال الشافـي للصدور في عدد ربـيع الأول من عام ١٣٨١ .

لقد قدم مقالته بعرض كلام الرئيس ، ثم تجرد للرد عليه بصر احـته التي لا يملك عنها انفكـاكاً .

قال الشيخ موجهاً كلامه إلى الرجل ، الذي نسي ، في غمرة الاعتداد بالقوة ، مسـئـولـيـته كـرـئـيس دـوـلة :

«.. هنا أحب أن أقف مع الرئيس وقفـة قصـيرة ، ومن حـقـي أن أقف معـه ، فقد حدثـنا سـيـادـته عن عمر بن الخطـاب ، وقد حـفـظـنا عن تـارـيخ عمر أن امرـأـة استـوقـفتـه فـوـقـه ، وأطـالـتـ معـهـ الحـدـيـثـ ، وـكـانـ ماـقـالتـ : «لـقـدـ كـنـتـ منـ قـبـلـ عـمـيرـاـ ثمـ صـرـتـ عمرـ ، ثمـ أـصـبـحـتـ أمـيرـ المؤـمنـينـ ، فـاتـقـ اللهـ وـانـجـ سـبـيلـ الحقـ ، فـبـكـىـ عمرـ حـتـىـ اخـضـلـتـ لـحـيـتـهـ ، فـقـالـ رـفـيقـهـ : كـفـيـ ياـ أـمـةـ اللهـ ، فـقـدـ أـبـكـيـتـ أمـيرـ المؤـمنـينـ . فـنـهـرـهـ عمرـ وـقـالـ : لـاـ خـيـرـ فـيـكـمـ إـذـاـ لـمـ تـقـولـوـهـاـ ، وـلـاـ خـيـرـ فـيـنـاـ إـذـاـ لـمـ تـنـقـبـلـهـاـ » وـلـيـسـمـحـ لـيـ سـيـادـةـ الرـئـيسـ أـنـ أـنـاقـشـهـ ، وـأـرـجـوـ أـلـاـ أـتـهـمـ بـأـنـيـ أـجـبـرـ لـلـرـجـعـيـةـ ، فـقـدـ كـنـتـ ، وـأـنـاـ مـنـ أـصـحـابـ العـائـمـ ، مـنـ أـرـبـابـ الـأـقـلـامـ الـمـتـواـضـعـةـ ، الـتـيـ لـمـ تـدـخـرـ وـسـعـاـ فيـ مـحـارـبـةـ الـفـسـادـ ، فـيـ وـقـتـ اـشـتـدـ فـيـهـ الضـغـطـ وـاسـتـفـحلـ فـيـهـ الـاستـبـداـدـ وـالـإـرـهـابـ ، وـكـانـ نـفـرـ مـنـ الجـيـشـ وـمـنـ الجـيـشـ وـحـدهـ هوـ الـذـيـ يـحـمـيـ حـمـيـ القـارـوـقـ ، وـكـانـ نـفـرـ مـنـ الجـيـشـ وـمـنـ الجـيـشـ وـحـدهـ هوـ الـذـيـ يـأـكـلـ عـلـىـ مـائـدـةـ وـلـيـ عـهـدـهـ الطـفـلـ وـالـقـاهـرـةـ تـحـرـقـ .. فـهـلـ يـحـوزـ يـاـ سـيـادـةـ الرـئـيسـ

أن يذاع على العالم ، ويحمس الجميع اللغات ، ومن رئيس الجمهورية العربية نفسه ، مثل هذا الكلام !

لقد فاتك أن تعقب بأنك كثيراً من ذوي العيائم كان لهم مواقف كريمة وغيره مشكورة ، وإحساس مرهف .. وإنك لتعرف بعضهم ، ولبعضهم عليك فضل .. ومن فضل الله أن شعبنا فاضل واع ذكي أريب ، يعرف مقاييس الرجال ، ويعزى الحديث من الطيب .

وختاماً يكفي العلماء العاملين شرفاً وفخرأً أن أحكم الحاكمين زكاهم ورفع قدرهم وخلد ذكرهم ، فقال سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا منك والذين أوتوا العلم درجات » ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر : « العلماء ورثة الأنبياء » .

مناقشة تحليلية :

وإذا لم يكن بد من التعقيب على هذا البيان المبين فسأكتفي بتوجيه النظر إلى ناحيتين اثنتين منه . أما الأولى فالشجاعة التي تدفع صاحبها إلى المغامرة برأسه في سبيل الحق ، الذي أخذ الله العهد على أولي العلم بنصرته .. وبخاصة في ظل تسلط يحاسب على الخلاجة ، ويقتل على الهمسة ، ويسجن كبار الرجال من صالح العلماء مع الكلاب المفترسة في السجن الحراري .. ولعمق الحق إن البطل الذي يقتحم صفوف العدو الكمي ، ليس أحق بالتقدير من مؤمن يقف أمام سلطان فتاك ليقذف بوجهه كلمة الحق صريحة مجلجلة . ورحم الله شوقياً الذي يقول :

إن الشجاعة في الرجال مراتب وأجلهن شجاعة الآراء

وأما الثانية ففي تلك الغمزات الجارحات التي يرمي بها مقاتل خصمه فلا يخطئها . أنعم النظر معني في هذه العبارات :

كان نفر من الجيش ، والجيش وحده ، هو الذي يحمي حتى الفاروق .
وكان نفر من الجيش ، والجيش وحده ، هو الذي يأكل على مائدة ولي عهده
الطفل ، والقاهرة تحترق .
وأنك لتعرف بعضهم .. ولبعضهم عليك فضل .

إن شعبنا شعب فاضل ذكي .. يعرف مقاييس الرجال ، ويميز الخبيث
من الطيب .

يكفي العلماء العاملين شرفاً وفخراً أن أحكم الحاكمين زكاهم و ...
ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر (العلماء ورثة الأنبياء) .
إن هنا لقذائف دونها صواريخ سام وهي تطارد فرائسها بقيادة الرادار .

وباء الطغيان :

ولعمر الله لا أستطيع أن أتصور مدى خيانة الأمة لأمانة الله ، لو لم يقيض
لها من يحمل عنها عباء التصدي لذلك الطغيان الجارف ، فيقول لأصحابه
مثل هذه الكلمات التي من شأنها أن تنهي من سكرة الغرور ، وتقيم على
المغرورين حجة الله ! ..

إن الطغيان السياسي كالوباء الراحت ، يبدأ صغيراً محدوداً ، فإذا حوصل
بالمحسنات الرادعات تقلص وتلاشى ، أما إذا أهل شأنه وفسح له سبيل التكاثر
لم يقف أثره عند حد ، ومضي يدمر كل شيء يصادفه ، ثم لا يلبث أن تتغلغل
عدواؤه إلى ما حوله ثم ما بعده إلى غير نهاية .. وهذا ما حادث للطغيان الكوني ،
يوم أقدم الدوني أتاورك على تقويض الخلافة ولم يجد قوة تردعه ، ولما اطمأن
إلى سلامه الطريق انطلق يهدم كل قائم في بناء الإسلام ، حتى كاد يأتي عليه من
القواعد في تركية المسامة .. ولم يقف شره عند حدود تركية ، بل أخذ يتدقق
إلى كل مكان من بلاد الإسلام يجد فيه استجابة من المضللين والمضللين ،
وليست هذه الفتنة ترسل شورها هنا وهناك في ربوع الإسلام سوى بعض آثار

السکوت على عدوان ذلك الطاغية الدوئي على حرمات الإسلام ، وما أظن مؤرخاً حصيناً يدقق النظر في العلاقة بين هذه الانفجارات المدamaة في ديار المسلمين إلا واجداً ارتباطها الوثيق بتلك الحنة الكبرى ، محنـة تقويض الخلافة والعدوان على معالم الإسلام في دولة الخلافة . وهكذا تسري عدوى الوباء ، وباء الانتفاض على نظام الإسلام من ثورة إلى ثورة ، ومن بلد إلى بلد . وليس مقتل علماء الإسلام حرقاً وهم أحياه في مقديشو بأيدي عصابة الماركسيين في الصومال عام ١٣٩٤هـ إلا واحدة من ثرات الطغيان الذي ساد أكبر بلد عربي ، فهد ولا يزال يهد الطريق لكل حنة يتعرض لها الإسلام وأهله في الشرق العربي وما حوله . ومن هنا كان لهذه القلة من أحرار مصر الذين نصروا الله بأقلامهم في حدود طاقتهم ، فضل الرائد الذي يتقدم القافلة نحو الطريق القوي ، فنهـم من قضى شـبهـه ، ومنهم من يتـنـتـرـ ، وما يـدـلـواـ تـبـدـلاـ .

نكـسـاتـ الـزيـاتـ :

ثم إن هذه المواجهة بين الرئيس والشيخ لم تكن الوحيدة والأخـيرـةـ ، وإن كانت أبرز المواجهـاتـ وأصرـحـهاـ ، فـكـلـ مـقـالـةـ كـتـبـهاـ بـعـدـ تـكـشـفـ حـقـيقـةـ المـتـسـلـطـينـ ، كانت سـهـاماـ مـسـدـدةـ إـلـيـهـمـ ، وإن لم تـذـكـرـهـمـ بـأـسـمـاهـمـ ، لأنـهـ لمـ يـخـطـ سـطـراـ مـنـهـاـ إـلـاـ فـيـ نـصـرـةـ إـلـاسـلـامـ ، وكلـ انتـصـارـ لـهـاـ الدـينـ إنـماـ هوـ هـجـومـ غـيرـ مـباـشـرـ عـلـىـ أـعـدـائـهـ الـهـدـامـينـ .

ولعل غضـبـ الشـيخـ عـلـىـ الأـسـتـاذـ أـحـمـدـ حـسـنـ الـزـيـاتـ - في عدد ربيع الأول عام ١٣٨٣ـ منـ مجلـةـ الـاعـتصـامـ - لاـ تـنـزـلـ عنـ هـذـاـ المـسـتـوىـ الذـيـ طـالـعـنـاهـ فيـ حـوارـهـ لـلـرـئـيسـ ، بلـ إـنـهـ لـامـتـداـدـ لـضـامـينـهـ ، لأنـهـ منـصـبةـ عـلـىـ سـيـاسـةـ الرـئـيسـ نـفـسـهـ .

لقد نـاهـ عـاتـقـ الأـسـتـاذـ الـزـيـاتـ تـحـتـ أـعـباءـ الشـيـخـوخـةـ ، فـنـسـيـ ماـ مـلـأـ بـهـ رسـالـتـهـ الطـيـبـةـ الذـكـرـ منـ دـعـوةـ إـلـىـ الـخـيـرـ وـالـفـضـائلـ وـالـدـينـ ، بلـ نـسـيـ ماـ رـزـأـهـ

الحكم من ثروة لا تقدر بمال حين انقزع منه تلك المجلة، التي استمرت سنتين طبيعية مطمح أبصار الأحرار من عشاق البلاغة والأخلاق.. وكان ذلك، ويا للأسف، منذ أيامه ذلك الحكم رئيساً لتحرير مجلة الأزهر.

أجل ، لقد نسي الزيارات الشيخ مآثر الزيارات الكهل ، فسلك إلى مرضاة المسلمين كل سبيل ، حتى لم يتورع أن يتخلى لهم عن دينه ، فيصف الوحدة التي ارتجلت ما بين مصر وسورية بأنها خير وأبقى من الوحدة التي بناها محمد رسول الله عليه عليه السلام .. فكان على كل حر أن يضج من الشتيمة ، ويتصدى لهذا الحرف المنحرف ليبرده إلى المجادلة .

وما كان مثل هذا الحديث ليقوت قلم الشيخ محمود ، الذي هو أبداً بالمرصاد لكل متعرض لعقل الإسلام. وهكذا اطلق يفند ترهات الزيارات، ويجلو لعينيه الحق الذي عميتا عنه .

وطبيعي أن الموقف من الحساسية بحيث لا يمكن من الفصل بين تجديف الحرف المترافق وسياسة الرئيس المترافق إليه ، لأن الموضوع قائم على المقارنة بين سياسة نبوية مخططة من فوق سبع سموات ، وسياسة مرسومة في موسكو وواشنطن ، ومدعومة بالمهرجين والهتافين والمرتزقة من لا يعرفون من حقائق الوحي نقيراً ولا قطميرأ .

ولم يكن الشيخ يحاذل ما يعرض له نفسه من عواقب هذه المواقف ، بل لا متذوقة له من أن يوطن نفسه لواجهة أسوأ الاحتكارات .

نchan منافقان :

القنابل التي أطلقها الشيخ في وجه الزيارات كثيرة وهائلة وحرقة ، ولا يغنى الاجتراء ببعض منها عن بعض .. وقد أعاد نشرها كاملة في كتابه الأخير «الحق» فليراجعها القارئ هناك إذا شاء . أما هنا فنكتفي من المعركة التي استغرقت

خمساً وأربعين صفحة من الكتاب ، بالفقرات التالية التي يكشف بها الشيخ عن غريبة النفاق في أعمق الزيارات .

في أخيريات أيام فاروق وبالضبط في ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢ كتب الزيارات في العدد ٩ من مجلة الأزهر ما نصه :

« باسم الله جل اسمه ، وعز حكمه .. منزل كتابه هدى ، ومرسل رسوله رحمة ، وبهدي صاحب الرسالة محمد صلوات الله عليه .. لسان الوحي ، ومنهاج الشرع ، ومعجزة البلاغة .. وبعطف صاحب الجلالة الفاروق .. ناصر الإسلام ، ومؤيد العروبة ، وحامى الأزهر ، أعز الله نصره ، وجمل بالعلوم والأداب عصره ... »

يقول الشيخ : هذا نص ما افتتح به الأديب مجلة الأزهر قبل طرد فاروق بشهرين .. فنشر إلى جانبه ما افتتح به عدد يوليو من مجلة الأزهر سنة ١٩٦٠ وهو يشيع فاروق نفسه :

« كان ملكاً على مصر قبل يوم ٢٣ يوليو ، وكان آية من آيات إيلليس في المرأة على دين الله ، وعلى حرم الناس .. بلغ من جرأته على الله أنه كان - كما حدثني أحد بطانته - إذا اضطرته رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة خرج إليها من المضجع الحرام فصلاحتها من غير غسل ولا وضوء ، وأدأها من غير فاتحة ولا تشهد ، وكان يقول إن أخواف ما أخافه أن يغلبني الضحك وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات العجيبة ! .. وبلغ من جرأته على المحرمات أنه كان يغتصب الزوجة ويقتل الزوج ويسرق الدولة ويسفه الحق ، ويأخذ الرشا .. ثم أملأ له الغرور فتبجح وتوقف وطفى .. » .

وما أحسب ردأ على مثل مفتريات الزيارات أقتل ولا أصمي من المقارنة بين هذين النصين من كتابات الزيارات في التملق للطاغيتين .. أما لماذا كل هذا النفاق .. فيقول الشيخ : لقد عاش الزيارات هكذا طوال حياته ، يكتب ما يروج ، وينشر ما يجلب له النعمة والعافية .. وحسبه أنه ظفر في عهد فاروق بلقب

« صاحب العزة » وظفر في هذا العهد بأكرم جائزة » .. وقد أصاب الأستاذ أحمد حسين في كلامه عن موقف المترجم من نفاق الزيارات إذ قال: « وقاد الشيخ الحلة ، وكتب كتابة من نار تحرق الكافرين .. لم يحتمل ولم يلأين وإنما وصل إلى حد الهجوم السافر والتحدي لرئيس الدولة نفسه » .

ونسان مؤمنان :

وقد سبق أن عرضنا بعض ما كتبه الشيخ في نقد الظاهرية ، ونسمح لنفسنا أن نعرض هنا أيضاً أنوذجين آخرين مما كتبه في كلا العهدين ، لنرى إلى الفرق بين ما يكتبه أهل الإيمان لوجه الحق ، والمتاجرين بالأقلام ابتغاء الرزق .

من مقال نشره الشيخ في عدد « الاعتصام » لشهر ابريل قبل خروج فاروق يقول في وصف واقع المسلمين : « ملوكيهم وحاكمهم معنيون بمناصبهم ، همهم أن تسلم لهم ، ولو على أيدي الغاصبين ، يسلمون عددهم ، وينذلون رعاياهم ، يجتمعون المال من دم الفلاحين وعرق الكادحين ، لينفقوه على ملذاتهم ، ويسعثوه على شهواتهم ، طوراً ينتزونه على موائد القمار ودور اللهو وكؤوس الشراب ، وحينما يبذلونه في مخاصة النساء ، وسماع النساء ، وما تتطلبه الليالي المحماء .. والويل شر الويل لمن تسول له نفسه أن ينكر عليهم ، أو يزجي النصح إليهم ، فجزاؤه السجن ، وإن شئت فقل بالإعدام » .

وفي « الاعتصام » نفسها يعقب على خطاب الرئيس عبد الناصر الذي ألقاه في الذكرى التاسعة للثورة ، وقد جمع الكثير من الغث والسمين ، والوعيد .

يقول الشيخ: « في خطاب الرئيس .. فقرات تسترعى النظر ، وتثير الانتباه .. فقرات تتسم بالصراحة التي تدعوا إلى الإعجاب والإكبار .. فقرات ينبغي أن تقف عندها ، ونتأمل فيها ، فهي جديرة بالتفكير والتقدير .. » .

وبعد أن يعرض الشيخ بعض آثار الإسلام في العدالة تذكيراً له بما غاب عنه ، يتتابع : « تلك صورة جميلة تحملنا ننكر باسم الإسلام يا سيادة الرئيس هذه الأموال الباهظة التي تتفق في غير موضعها ، هذه المكافآت السخية التي تصرف من مال الدولة على المثليين والمثلاط ، والراقصين والراقصات ، والفنين والفنانات .. قلت يا سيادة الرئيس إنك ت يريد أن تظهر المجتمع من عوامل الحقد والأنانية والفساد والبغضاء ... ومقتضى هذا المنطق أن تقلّم أظافر أولئك المترفين ، وتقص أجنحة هؤلاء الذين لا يزالون يعيشون في عالم المريخ ، فيشرون الحقد في نفوس الم Harmيين ، إذ يطلبون عليهم من قصور فخمة ويمررون عليهم في عربات ضخمة ، تنطلق - من فرط السكر - بسرعة جنونية تكاد تعصف بهم وتدني بحياتهم » .

أجل ... إنها لتصان يرسمان الصورة المثلث لحملة الأقلام النظيفة التي تتوقع حساب الله على كل نسبة تقولها أو تكتبها ، وبهذه الأقلام تفخر الأمم ، وتسمو المهم ، وشتان بين هؤلاء المؤمنين ، وأولئك المذبذبين ، الذين يصورهم قول الحريري على لسان أحدهم :

أنا الذي تعرفه يا حارث^١
حدث ملوك فكه^٢ منافث^٣
أعمل ما لا تعمل المثالث طوراً أخواً جدي^٤ وطوراً عابث
وخلبي في كل صيد ضابث

وما كان أحوج صاحب « مجتمع الكفاية والعدل .. » أن يسمع مثل هذا التقدّم الحار يذكره الواقع (مجتمعه) على لسان القليلين أمثال محمود فايد .. جزاءهم الله عن المظلومين والمحرومين والمضطهدين خير ما يستحقه الأحرار والمجاهدون .

بعد النكبة :

والحديث عن الأحداث التي عار بها الشيخ سظلل أبتر ما لم يتناول بعض مواقفه التي أعقبت نكبة عام ١٩٦٧ .

كانت تلك الهزيمة مبدأ تحول جديد في حياة مصر ، فعلى الرغم من كل التظاهرات التي اصطبعتها مراكز القوى في القاهرة وبيروت وغيرها، لاستبقاء الرئيس المخطوم في مركز القيادة .. لم تستطع منع الألسن من الكلام في هذا الموضوع ، فانطلقت تعبير عن سخطها على المسؤولين عن الكارثة ، وتعلن نقدتها للعهد كله . وتحركت المراكز الثقافية للإسهام في تحديد التبعات ، واستعراض الوسائل الفضلى لمعالجة الواقع الرهيب . وفي إحدى المناسبات المتصلة بموضوع الساعة دعا الشيخ للمحاضرة في جامعة القاهرة وجامعة المحافظة على القرآن ، وبصر احنته المأولفة ماضى في تحديد أبعاد الهزيمة ، وتعيين مسؤولية الرئيس(...) عنها . ولم يرق ذلك بقية مراكز القوة ، التي ماتزال تحيط بالرئيس لدفع النسمة عن نفسها ، بوصفها الشريك الأكبر في هذه المسئولية .. فوُجِدَتْ من مصلحتها تجميد نشاط الشيخ . وهكذا صدر القرار بإحالته إلى الاستيداع ، وقد قام بتبلیغه ذلك القرار وكيل الأزهر ، الذي سارع إلى استخدام الهاتف في ذلك التبليغ ، بسبب عطلة يوم رأس السنة الهجرية ، وتم تبليغ معهد القاهرة – الذي يعمل فيه الشيخ – بذلك القرار هاتفياً أيضاً .

وكان ذلك بثابة إنذار للشيخ بأنه تحت المراقبة السياسية . وهكذا لزم منزله في رعاية المخابرات التي جعلت ترصد كل حركة منه .

يقول الشيخ : لقد كانت هذه العزلة فرصة ربانية تفرغت فيها لتحقيق بعض الكتب وإنجاز بعض المؤلفات ، بما عاد عليه بورزق أوسع بكثير من الذي قطع عنه .

وقدم لزيارة أثناء هذه الخلوة المرصودة وكيل الأزهر يومئذ ، وشيخه الأكبر هذه الأيام ، الدكتور عبد الحليم محمود ، ومعه مستشار رئيس الجمهورية الفريق

عبد الرحمن أمين، والوزير العراقي السابق اللواء محمود شيث خطاب، وتناولوا فيما بينهم في وضع الشيخ، ثم اقترحوا عليه أن يقدم التناص بالعودة، فامتنع وأصر.

ويروي الفريق عبد الرحمن أمين بمحضر من إدارة الجمعية الشرعية أن الرئيس سأله بعيد صلاة عيد الفطر: «ألا يزال محمود فايد عضواً في الجمعية الشرعية؟» فيجيب بالإيجاب، ثم يذكر الشيخ بخير، فما كان من سيادة الرئيس إلا أن أشاح بوجهه استنكاراً لذلك الاطراء، ثم سارع إلى مغادرة المسجد وهو يقول متهدكاً: كلامكم كذابون وأنتم الصادق!

ولا حاجة إلى التساؤل عن هؤلاء الكذابين الذين تشير إليهم عبارة الرئيس.. إنهم بطانة السوء الذين يتوقف بقاوئهم في مرآكز التأثير على استبعاد كل عنصر يتسمون فيه أي ظاهرة من الخير أو الدعوة إلى الخير.. وهو واقع يؤكده ما ذهبنا إليه في تعقيبنا على اعترافات توفيق الحكم التي نشرها بعنوان «عودة الوعي» فناقشتها بالمقال الذي نشرته مجلة «المجتمع» الكويتية تحت عنوان «طغيان فرد أم طغيان عبد».

أين المعتبرون:

وهناك حادثة يحسن ألا يفوتنا ذكرها هنا، ويصفها الشيخ بأنها من الواقع العجيبة التي مرت به، ذلك أن دولة شموعية - لم يسمها - بعثت بفرقة راقصة للترفيه عن المصريين في رمضان ١٣٨٧-١٩٦٧ م ورأى المنحرفون أن يعدّ لها مكان في ميدان الجيش لتحميي الخامس والعشرين من رمضان.

وفي حفل عام أقامته الجمعية الشرعية في ذكرى بدر تكلم الشيخ فايد حول هذه الصفافة فكان مما قاله: «أخذى الله هؤلاء السفهاء.. لقد بلغ بهم السخف أن يحيوا رمضان بالمنكرات.. وفي أي مكان؟.. في ميدان الحسين بين مسجده وبين إدارة الأزهر ومشيخة الطرق الصوفية!.. يا لها من إهانة متعمدة توجه

لعمّار هذه المؤسسات الإسلامية ! .. يا لها من إهانة توجّه إلى شهر القرآن ! .. » .

وكان أحد المسؤولين حاضراً ذلك الحفل فأبلغ النبأ السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية فأصدر أمره بمنع الفرقة من تنفيذ ذلك المنكر .

وقد أثبّتنا خبر هذه الرقاعة لما تحمله من خصائص العقلية المادية ، التي لا ترى أقدر من الفجور على تحطيم المهم .. وقد أصبحت طابع الجيل الصائغ الذي غسل قلبه من معاني القيم الإسلامية ، فلا ينظر ولا يسمع ولا يحس إلا من خلال جوارح الكافرين . وقد ذكرنا في أحد كتبنا الأربعين ألف صورة من رسوم الراقصات والمنفيات التي وزعت .. قبيل « الزحف لتحرير فلسطين » عام ١٩٦٧ ! .. ووعدت الجريدة المصرية ناشرة الخبر أن هناك مئة وستين ألف صورة أخرى لبقية الرقاء ستوزع على أولئك المحاربين في خنادق القتال ! .. ثم كانت النتيجة تلك الهزيمة التي مرّت بالهوان جباء العرب والمسلمين جميعاً إلا فرق المتفعين .

وما أدرى لماذا تذكرني هذه السخافات بمنظر تينك الصورتين الأخريتين ، اللتين جاءني بها ولدي أثناء حرب رمضان ١٣٩٣ هـ على صفحات إحدى الصحف المصرية ، وهما تعرضان طيارين مصريين ، وقد هما بدخول الطائرة ، وبدا جلياً على خوذة كل منها « لا إله إلا الله » .

إن جيش فريد الأطرش وعبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وتحية كاريوكا لم يسجل في حربه تلك سوى مآثر الانهيار الذي وزعه خلال ساعات بين أسير في قيود اليهود ، وشريد على رمال البيد .

أما جيش « لا إله إلا الله » فقد مسح العار - خلال ساعات - عن جباء كل العرب والمسلمين بفضل الله رب العالمين .

ولكن .. أين الذين يفهون ويعتبرون !

فيتو ثوري :

ولا يفوتنا أن نذكر من الأعمال الأخرى التي شغل بها عن مهنته الأساسية في مصر ، تعيينه رائداً دينياً لمدينة البعوث ، فكانت فرصة طيبة لروابط حية توثقت بينه وبين الطلاب الواقفين إلى الأزهر من أنحاء العالم الإسلامي ، وأذكر أنني التقى ذات يوم خريجاً سورياً منهم ، ولما استوضحته عن أقوى مشايخه أثراً في نفسه لم يتردد في تسمية الشيخ محمود فايد . ولم يكن هذا الخريج ليعلم أن الشيخ زميل لي عزيز في الجامعة الإسلامية .

ولقد رضي ولاء الأمر في الأزهر عن نشاط الشيخ في عمله الجديد ، ولم يحجبوا عنه تقديرهم ، إلا أن السياسة لم تثبت أن أبدت قلقها من ذلك النشاط ، وطلبت من وكيل الأزهر تنحيته . وبعد مطال طويل اضطر الوكيل إلى مصارحة الشيخ بالفيتو الذي شهر عليه ، فلم يسع الشيخ إلا قبول الواقع ، فقدم استقالته لفورة .

ولعل أكرم تعزية نالها الشيخ إثر استبعاده عن تلك الريادة خطاب وكيل الأزهر يومذاك - الدكتور محمد ماضي - الذي يقول له فيه : « لا يسعني بهذه المناسبة إلا أن أقدم لكم شكر الأزهر وتقديره لجهودكم المتمرة التي بذلتموها لصالح طلاب البعوث الإسلامية ولصالح رسالة الأزهر ، وهي رسالة الإسلام ، في الفترة التي قمت فيها بأعباء هذه المهمة .. كما نخظر فضيلتكم بأننا قد قررنا أن توضع صورة من خطابنا هذا في ملف خدمتكم .. »

ولا جرم أنها لفتة كريمة من الدكتور ماضي تم عن ارتفاعه فوق أهواء السياسة .

في مجلس الشعب :

ونخت هذه الطائفة من صور النشاط الذي عرف عن المترجم بالإشارة إلى تلك الصراحة المدوية التي أرسلها في مجلس الشعب المصري صيف العام ١٣٩٣هـ.

لقد دعي يومئذ للمشاركة في البحوث المثارة حول الأوضاع الجديدة بمصر ، وفي إحدى الجلسات الحافلة ألقى الشيخ كلمته التي استغرقت عدة صفحات ، صرخ فيها بكل ما يراه ، وأكده على وجوب مناجزة إسرائيل قبل أن تستكمل قدراتها المرسومة ، التي يستحيل معها على العرب مواجهتها عسكرياً .

وكان القدر كان يجري على لسان الشيخ ما يدور في رؤوس المخططين لحرب رمضان ، التي ما لبثت أن شببت فاكتسحت ، بعونه الله ، خط بارليف . وقد نوه الأستاذ محمود أبو وافية بكلمة الشيخ تلك في مقال نشرته الأهرام يوم ٢٥/٢/٧٤ وقال في زيارة عجل إلى المدينة المنورة : إن الرئيس السادات ، اطلع على كلمة الشيخ فأيدوها في حينها وعلق عليها بقوله : « هذه أصرح كلمة » .

مؤلفات الشيخ :

وعلى السؤال الخاص بمؤلفاته أجاب فضيلته أنه حقق كثيراً من كتب التراث الإسلامي ، منها « خلاصة تذهيب الكمال » أخرجه في ثلاثة مجلدات كبيرة بعد أن كان مجلداً واحداً ، وقد أفرد له مقدمة خاصة . وشارك في تحقيق (المعنى) لابن قدامة و (أسد الغابة) و (مراقي الفلاح) و (الفرقان) لابن تيمية ، و (الجواب السكافي) لابن القيم . ومن مؤلفاته :

- ١ - كتاب (المنطق الواضح) في علم المنطق (في جزأين) .
- ٢ - (التربية في كتاب الله) .
- ٣ - (الإسلام والصحة) .
- ٤ - (الإسلام وأثره في نهضة الشعوب) .

ويعتبر الشيخ أهم مؤلفاته (الرسالة الحمدية وشواهدها) فقد نحا في هذا الكتاب نحواً جديداً في إثبات الرسالة الحمدية ، ونال استحسان كبير من كتاب العصر - كما يقول - .

نماذج من أدبه :

ولعلنا أوقعنا الشيخ في حيرة عندما انتهى إلى هذه الفقرة من استطلاعنا ، وفيها نلتمس أن يتحفنا بمحنات من أحب ما كتب إليه .. ذلك لأن مثل الشيخ لا يكتب إلا ما يحب وما يحب ، وهذا قد يتعذر عليه التفريق بين نص وآخر من نثره . وفي ما أسلفنا من مقاطع ما يكفي المدلالة على طابعه الأزهري ، الذي يؤثر وضوح الفكر على تأني الصياغة ، وهي السمة التي تطالعنا ملامحها أبداً في أسلوبه كاتباً وواعظاً ومحاضراً .

أما شعره فقد اختار لنا منه بعض المقاطع نقدمها في ما يلي كأنوذج للتطور الذي صار إليه بعد فترة القرزمة التي أسلفنا بعض شواهدها . ففي همزة له يخاطب أولي التأثير في مسيرة العالم الإسلامي فيقول :

لَكُمْ بِأَحْمَدَ أَسْوَةَ حَسَنَاءِ فِيهَا عَلَى جَذْمِ الشَّرُورِ قَضَاءِ إِنَّ التَّخَازِلَ فَتْنَةٌ وَبَلَاءٌ حَرَسَاءٌ يَخْشَى بِأَسْهَا الدَّخْلَاءِ لَمْ تَحْيِيْ يَوْمًا أَمْمَةَ عَزَلَاءِ فِي النَّارِ لِلظَّمَانِ يَرْجِيْ مَا	يَا قَادِهِ الْإِسْلَامِ جَدُوا وَلِيَكُنْ هُلْ كَانَ هَذَا الدِّينُ إِلَّا دُعْوَةٌ هَبُّوا لِلنَّصْرِ الدِّينِ لَا تَتَخَادِلُوا وَلَتَحْرُسُوا الْوَطْنَ الْعَزِيزَ بِقُوَّةِ وَخُذُّوا بِأَسْلَحَةِ الْحَيَاةِ فَإِنَّهُ لَا تَأْمُنُوا رُوْسِيَا وَأَمْرِيْكَا فَمَا
--	--

وبناسبة ذكرى الإسراء والمعراج يوجه هذه الإهابة - من قصيدة طويلة -
إلى المسلمين في كل مكان :

أَفَأَكُمْ بَدِينَ مِنْ يَوْالِيْهِ يَنْصُرُ وَيَكْشِفُ أَسْرَارَ الْوَجُودِ وَيَظْهُرُ وَمَلُوا حَيَاةُ الْعِلْمِ حَتَّى تَأْخُرُوا	أَيَا أَمْمَةُ الْإِسْلَامِ هَذَا رَسُولُكُمْ يُشَيَّدُ لِلْعِلْمِ الصَّحِيحِ مَعَافِلًا فَمَا بَالْ قَوْمِيْ قَدْ تَعَامَوْا عَنِ الْمَهْدِيِّ
--	---

ونحن بهذا الكشف أولى وأجدر
ولا تركنا للجهل فهو مدمر
خطيرًا فبلوى الجهل أدهى وأخطر

لقد كشف الأعداء أسرار خلقه
أعدوا لهم ما تستطعون من قوى
فإن تلك إسرائيل أمسى بلاؤها

وفيها يقول :

فلسطين مسرى المصطفى غاب نجمها
وحل بها جند اليهود وعسكروا
وفي المسجد الأقصى يميس عدونا
ونفتح للرقص المثير معاهداً
ونكشف سوات الغواي ونشر

ولو اطلعت على هذه الأبيات قبل فراق الشيخ للعطالة الصيفية لاقترحت
عليه أن يجعل بدل (ن Zimmerman) (نسكر) لأنها أشد انطباقاً على غفلاتنا ..
ولقرأت عليه هذه العبارة التي أثبتتها في ورقة الأحد ٩٦/٤/١٢ من مفكريتي :
«مساء اليوم س ٩،٣٥ أذاع صوت أميركا تقريراً من مراسله في القاهرة :
يتتحدث فيه عن الأوضاع الفنية هناك فيقول : تخرج في معهد الباليه بصر
أربعون راقصاً وقد التحقوا - أو التحقن - بالفرقة الفنية » .

وهو خبر يسر الكثيرين أن يسمعوه لأنه ينذرهم أكبر دليل على التفوق
الذى يشق لنا الطريق إلى منافسة أعرق السفهاء في العالم .. وكفى بذلك
فخراً ونصرأ !

والهم أن في هذه النماذج صورة ملموسة من التطور الصاعد في صياغة الشيخ
الشعرية ، فقد استقرت القافية في متنزها المناسب ، فلم تعد قلقة مقسورة كما
لاحظناها في بوأكيره الأولى ، واستقام له الأسلوب على مهیع البيان السلم ،
فجاء شعره مائجاً بأفكاره الاصلاحية الواضحة .. ولكته ظل حاملاً صفة
الكاتب الذي يترجم عن عقله أكثر مما يترجم عن عاطفته وأخيته .

الجيل والعلماء :

وكان الشيخ موقن أنه في إجاباته السالفة قد استوفى ما نريده في هاتين الفقرتين ، لذلك اكتفى بقوله : « سألتني عن رأيي في مستقبل الجيل الإسلامي ، وما يمكن للعلماء أن يصنعوا في هذا السبيل ، فأقول : هذا موضوع يطول شرحته وقد كتبنا حوله مقالات كثيرة ، ومحاجة ما كتبناه أن المجتمعات الإسلامية زحفت إليها مبادئ منحرفة شرقية وغربية ، وقد تسربت إلى الجيل الناشئ وتغلغلت في نفسه عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية .. وواجب العلماء أن يعرف بعضهم بعضاً في مؤتمرات إسلامية متواillة محلية ودولية ، ويدرسوا الخطط العملية التي تعيد للأمة الإسلامية وحدتها ، وتنمي قوتها ، وتحقق استقلالها وسيادتها ، وتدفع عنها كيد الكائدين ، وبطش المستبدin ، وعليهم بعد ذلك أن يقوموا بواجبهم داخل دولهم بحكمة وروية متوكلين على ربهم » .

وقد سبق أن عرفنا وجهة نظر الشيخ من هذه الناحية ، وهي القدر الذي يكاد يكون مشتركاً بين معظم أصحاب الفضيلة المحبين على أسئلتنا ، ونذكر هنا ما سبق لنا قوله ، وهو أن مجرد الدعوة التي تجمع العلماء في مؤتمرات إصلاحية يتضمن التجاهل لواقع هؤلاء وما يحيط بهم من عقبات وموانع تحول دون تلاقيهم .. وإذا أغرقنا في التفاؤل وتصورنا إمكان الاجتماع ، فمن لنا بتتنفيذ ما يتلقون عليه من مقررات لا سبيل إلى التوفيق بينها وبين ما يواجهونه من أحكام !

ثم .. من يضمن للشيخ أن يكون المجتمعون كلهم من هذا الطراز الذي أخلص قلبه لله ، فراح يرد على أعداء الإسلام بمثل كلمة المغفور له محمد الخضر الحسين ، شيخ الأزهر الأسبق ، يوم جاءه موافد يساومه على دينه ، فأجابه : « قل للرئيس يكفيكي من دنياكم كسرة خبز وكوب لبن وقد ضئلها لي الله . وهذه استقالتي تحت تصرفكم » .

ثم من يضمن لنا أيضاً أن يكون الشيخ محمود نفسه أحد مؤلاء المجتمعين – إذا قدر لهم الاجتماع – فيدوبي صوته بكلمة الحق الذي لم يجامل فيه – على رأي الأستاذ أحمد حسين – لأنه – بتعبير الأستاذ محمد عبد الله السهان – من العلماء القلائل الذين يبحث عنهم الإسلام المغلوب على أمره وسط التحديات التي تحيط به من كل جانب ، وتهب عليه من الشرق والمادي الملحد ، والغرب الصليبي المعصب على السواء .. وتبحث عنهم قضايا الإسلام وال المسلمين ، التي قل أن تجد اليوم من يأخذ بيدها ... »

وإنني لأكتب هذه الكلمات ولا يزال في سمعي صوت مفتى اليمن الشمالي الشيخ محمد أحد يعلن من إذاعة موسكو قبل أيام أن الإسلام على خير ما يرام في ظل الشيوعية – التي يعلن طواغيتها على العالم أنهم أعداء كل دين – وأن المسلمين في روسية الشيوعية أكثر الناس استمتاعاً بحرية الدين ! ..

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ..